قراءات في الآثار الفلسطينية

هذا المقال يركّز على ما يقوم به الإسرائيليون من نشاطات آثارية وما أدّت إليه من اكتشافات وفحص فرضيات أو صياغتها أو تطوير اتجاهات جديدة في البحث.

نقاط الانطلاق لهذا العرض عديدة ومتنوعة، وأول هذه النقاط قضايا بحث خرجت عن إطار المتخصصين كموضوع المقال الراهن الذي يعرض ما شكّك فيه الباحث الإسرائيلي فينكيلشتاين من وجود مملكة متطورة تُدعى «إسرائيل» في القرن العاشر ق. م. وترتبط بهذه القضية قضايا أخرى كتاريخية شخصية داود، بالاعتماد على اكتشافات جديدة كالنقش الآرامي الذي عثر عليه قبل سنوات في تل القاضي (دان)[1] ويُزْعَم أنه يذكر «بيت داود». وتدخل ضمن هذا الإطار التقييمات الجديدة لوضع القدس في أواخر الألف الثاني وبداية القرن العاشر ق.م. بناء على التنقيبات التي أجريت وتجرى في المدينة منذ العام ١٩٦٧.

نقطة انطلاق أخرى هي الإكتشافات الآثارية بحد ذاتها، وهناك العديد منها، كالكشف قبل سنوات عن مدينة بيزنطية كاملة (كاسترا) في حيفا أو كنقش أحد الملوك الفلسطينيين القدماء الذي عثر عليه في خربة المقنع (عقرون) عام ١٩٩٦. ولا تتعدّى معرفتنا بهذا الإكتشاف وغيره ما توزّعه وكالات الأنباء على الصحف المحليّة.

وهناك التنقيبات في المدن الفلسطينية نفسها كبيسان وأسدود وعسقلان ويافا، وفي المدن القديمة كتل الصافي (جَتْ) وخربة البرج (دور) وتل المتسلم (مجدو) وغيرها. ونفتقد كلية إلى معلومات حول نتائج هذه التنقيبات التي ما زالت مستمرة في بعض المواقع حتى اليوم.

ولا يمكن تجاهل الكثير من الأبحاث الموسعة التي جاءت نتيجة لأعمال آثارية أو دراسات لمواد محدّدة كرسالتي دكتوراة في فترة الفرنجة، الأولى حول «العمارة المنزلية» والثانية حول «مواقع السكن الريفية» من تلك الفترة، أو دراسة نشرت هذا العام حول العمارة في خربة المفجر (قصر هشام في أريحا).

إسرائيل القديمة: مملكة في القرن العاشر ق.م.؟

هذا السؤال الذي طرحه أحد الآثاريين الإسرائيليين مجيباً عليه بالنفي متجانس مع الاتجاهات النقدية للعهد القديم[٢] التي بدأت مع الألماني فيلهاوزن في القرن الماضي. وإن كان البعض داخل إسرائيل وخارجها، ما زال ينظر إلى العهد القديم كمصدر تاريخي قادر على إعطائنا صورة متوازنة لتاريخ فلسطين، فإن الإتجاه السائد والأقوى هو إرجاعه إلى البيئة التي نشأ فيها بكل ما في ذلك من تأثيرات على النص أو إسقاطات فيه. هذه هي خلفية بعض الآثاريين الذين ينطلقون من معطيات الآثار لإعادة النظر في التسلسلات الزمنية أو تحديد وضع اجتماعي معين بشكل أكثر موضوعية.

يسرائيل فينكيلشتاين، الآثاري الإسرائيلي من جامعة تل أبيب، لا يتردّد في استعمال كلمة «فلسطين» في مداخلاته الآثارية حتى لو شمل ذلك «المملكة المتحدة» لإسرائيل القديمة، ويتجرّأ على التشكيك بإحدى المقولات الثابتة في الآثار الفلسطينية، وهي نسبة بعض المدن من القرن العاشر ق.م. كتل المتسلم (مجدو) وتل القدح (حاصور) وتل الجزري (جازر؛ بالقرب من قرية أبو شوشة) إلى سليمان و«مملكته المتحدة» (إسرائيل القديمة) كما وصل إلينا وصفها المبالغ فيه عَبر العهد القديم، بالمقارنة مع غريمه من الجامعة العبرية، أميهاي مازار، بمصطلحه المشبع بالأيديولوجيا الحديثة «إريتس يسرائيل»، أي «أرض إسرائيل». وفي اللقاء السنوي الذي نظمته «جمعية آداب الكتاب المقدس» الأميركية في سان فرانسيسكو في تشرين الثاني عام ١٩٩٧، وهي إحدى أهم الجمعيات لدراسات الكتاب المقدّس في العالم، انبرى عدد من الآثاريين العالميين أمثال لاري ستاجر من جامعة هارفارد ورئيس بعثة التنقيب في عسقلان للرد على فينكيلشتاين في محاولة واضحة لإسقاط فرضيته. وتخطى النقاش الإطار الآثاري إلى الحدّ الذي دفع صحيفة لا علاقة لها بالموضوع مثل «وول ستريت جورنال»، الصحيفة المالية الأولى في العالم، إلى نشر تحقيق حول الموضوع في صفحتها الأولى مع صورة للباحث بتاريخ ٣١ كانون الثاني ١٩٩٧.

وإن كانت القضية في نقاطها الرئيسية محض آثارية، كما سنرى، فإن لها مدلولات أخرى واضحة لنا نحن الفلسطينيين ولقلائل غيرنا، في الوقت الذي يفضل آخرون، وهم كثرة، تجاهلها أو السكوت عنها. وهذا في النهاية، موقف ذاتي لا علاقة له بالرؤيا التاريخية، وإنما يعبّر عن الحاضر وكيفية التلاؤم معه أو حتى القبول بشكل مطلق بالعيش فيه. وقد كان ذلك واضحاً في تعليق أفرهام مالامات من الجامعة العبرية بقوله «لا شك في أن اللحظات العظام من تاريخ إسرائيل تقع في فترة داود وسليمان. وأي شخص يقول العكس هو عدو للكتاب المقدّس ولإسرائيل». هذه الخلفية التي حدت بلاري ستاجر، أيضاً، إلى وصف فينكيلشتاين بأنه ذلك النوع من الناس الذي يحب أن يكون «الصبي الشرير»، فلا بأس من إهمال فرضيته ووضعها على الرف. وهذا هو المطلوب.

نقطة الإنطلاق في الفرضية الجديدة هي تأريخ استقرار الفلسطينيين القدماء في كنعان في القرن الثاني عشر، وهو التأريخ الذي كان وما زال يعتمد كبداية للعصر الحديدي، وأحد التقسيمات الرئيسية للحقب الآثارية كما هو متعارف عليها في الشرق الأدنى القديم ككل. ولهذا فإن لفرضية فينكيلشتاين تداعيات أخرى تتجاوز مجرد خلع رداء العظمة عن داود وسليمان كما وصلت صورتيهما إلينا عَبر العهد القديم.

وكما هو معروف آثارياً فإن تحديد بداية استقرار الفلسطينيين القدماء مرتبط بظهور أحد أنماط الفخار المصنوعة محلياً، أي في فلسطين. هذا الفخار يُعرف بالأحادي اللون المتفرّع عن أحد فروع الفخار المايسيني الذي كان سائداً في جزيرة قبرص ومنطقة أرجوليس في اليونان. وحتى منتصف التسعينات ساد الاعتقاد بأنّ الفخار قد بدأ بالظهور بشكل واسع في فلسطين بعد معركة رعمسيس الثالث مع ما يُسمّى «بشعوب البحر»، الذين منهم انحدر الفلسطينيون القدماء كما نعرفهم في تحالف المدن الخمس. والتأريخ الذي يُعطى لهذه المجموعة السابقة للفلسطينيين القدماء هي حوالى ١١٧٨–١١٥٠ق.م.

فينكيلشتاين الذي اتهم بأنه تأثّر بآراء بعض المؤرّخين الذين يُقلّلون من أهمية العهد القديم في كتابة تاريخ فلسطين أو أولئك الذين يلغونه كلية (المينيماليون والعدميّون) [٣]، قام بخفض هذا التاريخ ما يُعادل ٥٠ إلى ١٠٠ سنة، أي أنه أعاد ظهور الفخار الفلسطيني الأحادي اللون إلى نهاية القرن الثاني عشر، وذلك بالإعتماد على دراسة أجراها حول استقرار الفلسطينيين القدماء في السهل الساحلي الجنوبي لكنعان. ومن الجدير بالذكر أن دراسة فينكيلشتاين هذه لم يكن قد نشرها بعد مُكتفياً بإعلان موجز عنها في المقال الذي أثار كل هذه الضجة العالمية. وهذا يعني أن اقتراح تصحيح الصورة بالنسبة لآثار المملكة المتحدة لداود وسليمان هو نتيجة فرعية لبحث آثاري محض لا علاقة له إلاّ بشكل غير مباشر بالكتاب المقدّس أو بفترة داود وسليمان التي يغطيها هذا المصدر. وفرضيته كانت نتيجة لسلسلة من الأبحاث تشمل التعامل مع مواقع ومواد آثارية بشكل مباشر على مدى عقدين من الزمان.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن خفض تاريخ ما في الآثار هو عملية مشروعة، إن كانت تقع ضمن نقطتين محددتين بشكل مطلق، كل منهما مستقاة من مصادر كتابية، وهي في هذه الحالة من مصر ووادي الرافدين. ومن المتعارف عليه، أيضاً، تسمية هذا النوع من خفض ورفع التواريخ الزمنية (بالإعتماد على الفخار) بالتسلسل الزمني النسبي، بينما يطلق على التواريخ المستمدة من المصادر التاريخية المكتوبة أو مترتبة عليها بالتسلسل الزمني المطلق. فما هما النقطتان اللتان قام فينكيلشتاين بتعديل الزمن النسبي بينهما؟ النقطة العليا هي في أواخر القرن الثاني عشر مع نهاية السيطرة المصرية على جنوب كنعان في حدود ١١٣٥ ق.م.، حيث أنه حسب أبحاث جديدة فإن السيطرة المصرية امتدت بعد فترة حكم رعمسيس الثالث المذكور تاريخها أعلاه لتصل إلى أيام رعمسيس السادس. أما النقطة السفلى فهي حملات الآشوريين في منتصف القرن الثامن، وبالتحديد حملة شلمانصر عام ٧٢٢ ق.م. عندما قضى على سبسطية (سامارياً)، عاصمة دولة اسرائيل القديمة.

ضمن الفترة التي تشمل ما يعادل ٤٠٠ سنة لا يوجد ما يؤرخ المعطيات الآثارية إلا نقاط زمنية متناثرة كزلزال عام ٧٦٠ (الطبقة السادسة لتل القدح [حاصور]) وتأريخ مجموعة من الفخار من زرعين (يزرعيل) إلى منتصف القرن الثامن، وربط تخريب الطبقة ١١ من تل عراد (عراد) بذكر لها في نقش لشوشينق الفرعون المصري الذي قام بحملة إلى فلسطين عام ٩٢٦. وقد سجل الفرعون الذي يعرفه العهد القديم باسم شيشق، حملته في معبد عمون في الكرنك ذاكراً أكثر من خمسين موقعاً من بينها تل المتسلم (مجدو) وتل عراد (عراد). ومن المعروف أن العهد القديم يؤرخ هذه الحملة في السنة الخامسة

من حكم رَحُبْعام بن سليمان (سفر الملوك الأول ١٤: ٢٥ – ٢٧). فإذا كان يجوز ربط طبقة تخريب بحملة شيشق عام ٩٢٦، فإن ما يسبقها من طبقة ببقاياها المعمارية هو من الفترة السليمانية. وهذا ما كان يفترض فعلاً، أي ربط تل المتسلم (مجدو) الطبقة الخامسة أ ـ الرابعة ب، وفيها تخريب، بتلك الحملة، وبالتالي تعود المباني والصروح من الطبقة السابقة الى عهد سليمان، أي الى القرن العاشر.

وقلة التواريخ الزمنية المؤكدة، أو عدم صلاحيتها، يدفع الآثاري إلى وضع تسلسل زمني نسبي بالإعتماد على الفخار. وهذا ما فعله فينكيلشتاين بالنسبة للفخار الفلسطيني الأحادي والثنائي اللون. خافضاً تاريخ ظهور الأول منهما ما يعادل خمسين إلى مئة سنة. وقد قورن الفخار الفلسطيني الثنائي اللون بمعارك من المفترض أن داود كان قد خاضها مع الفلسطينيين القدماء، وتمخضت عن تأسيس المملكة المتحدة لإسرائيل القديمة.

وبكلمات هذا الباحث فإنه ينبغي «تأريخ الفخار الأحادي اللون إلى حوالي ١١٣٥ – ١١٠٠ أو حتى بعد هذا التاريخ، والقول أن الفخار الفلسطيني الثنائي اللون والمتطور عن الأحادي، مع تأثير كنعاني ومصري، كان مستخدماً طوال القرن الحادي عشر حتى بداية أو منتصف القرن العاشر ق. م. ومعنى ذلك أن تاريخ أول طبقة تلي الفخار الفلسطيني الثنائي اللون هو منتصف أو أواخر القرن العاشر عوضاً عن أوائل القرن العاشر».

ومن الضروري رسم صورة سريعة عن المراحل الأولى لاستقرار الفلسطينيين القدماء، الذي ما زال يستأثر بأقلام البحاثة لغموضه وغرابته من جهة، ولعلاقته (من وجهة نظر البحث الغربية، وبالطبع الإسرائيلية) بالإسرائيليين القدماء، من جهة أخرى. وهناك بيانات لا يستهان بها حول الفلسطينيين القدماء تجمعت في العقدين الأخيرين، لا بل في السنوات القليلة الماضية، نتيجة لعدد من التنقيبات أجريت في مواقع رئيسية للفلسطينيين القدماء كعسقلان وخربة المقنع (عقرون) وحالياً تل الصافي (جَتْ). وإن كان ما سيلي نبذة صغيرة ومحدثة حول الفلسطينيين القدماء، فإن الموضوع يستدعي إعادة نظر شاملة في عدد من المقالات.

تؤرخ بداية استقرار الفلسطينيين القدماء في كنعان بعد معركتين في البر والبحر خاضهما رعمسيس الثالث، في السنة الثامنة من حكمه، وانتصر فيهما على «شعوب البحر». و«شعوب البحر» هو الإسم الذي أطلقه المصريون القدماء على جماعات وفدت إلى السواحل السورية والمصرية عن طريق البحر، ولا يعرف موطنهم الأصلي الذي قد يكون غرب آسيا الصغرى. ولا مجال للشك بأن لهم علاقة بالحضارة المايسينية التي هيمنت في القرن الثالث عشر على يابسة اليونان (العاصمة مايسينيا) وبعض جزر بحر ايجه. وبالرغم من تسجيل المصريين القدماء لانتصارهم على شعوب البحر، فإنه يعتقد أن هذا الإنتصار تمخض في ما بعد عن هزيمة وخاصة في كنعان. إذ أن المصريين، وتحسباً لهجمات جديدة ومتتالية، قاموا بتجنيد عناصر من شعوب البحر في الجيش المصري. وفي الوقت نفسه قاموا بإسكان بعض شعوب البحر في مناطق نفوذهم في كنعان وخاصة في المنطقة الساحلية الجنوبية. وأهم مجموعة من مجموعات «شعوب البحر» سكنت أو أسكنت في كنعان هم «البلشت» الذين استمد من اسمهم في

النهاية اسم فلسطين، بالإضافة إلى غيرهم من الجماعات كالسيكيلا (ربما كان لهذه الكلمة علاقة باسم جزيرة صقلية) التي سكنت منطقة الطنطور (خربة البرج جنوب حيفا، قديماً دور) والشارديني (يقارن الاسم بجزيرة ساردينيا) التي استقرت في منطقة عكا. أما البلشت، الذين نطلق عليهم هنا لقب «الفلسطينيون القدماء» فهم أبرز مجموعات «شعوب البحر» الذين انتشروا في الجنوب ليستقروا مع الزمن، وليؤسسوا مدناً ضخمة أهمها تلك الممثلة بالتحالف الخماسي: غزة، عسقلان، اسدود، تل الصافي (جَتْ)، خربة المقنع (عقرون). وقد رُبطَت مرحلة الإستقرار الأولى للفلسطينيين القدماء بالفخار الأحادي اللون الذي ظهر بشكل مفاجيء وكثيف في مواقع جنوبية كانت تحت السيطرة المصرية، مما يدعم نوعاً ما فرضية إسكان المصريين لتلك الجماعات.

وبالعودة إلى فينكيلشتاين، فإن هذا الآثاري يعزز فرضيته بنتائج تنقيبات حديثة في المواقع المحصنة المصرية في جنوب فلسطين، هذه النتائج التي بدأت تتبلور منذ بداية الثمانينات. إذ لوحظ، وبشكل خاص في تل الدوير (الطبقة السادسة) وتل الشريعة (الطبقة السابعة)، أن هيمنة المصريين على جنوب فلسطين قد استمرت حتى الأيام الأخيرة من حكم رعمسيس الثالث، لا بل إنها استمرت إلى ما بعد هذا الفرعون، أي حتى رعمسيس السادس. وإذا كان الفخار الأحادي اللون لم يظهر في تل الدوير وتل الشريعة، فكيف يكون موجوداً في الوقت نفسه في مواقع التحالف الخماسي، وهو من الفخار المستعمل يومياً الذي لا يعقل أن لا تتسرب منه ولو حتى قطعة واحدة على مدى عدة عقود إلى المركزين المذكورين. ومما يدعم رأي فينكيلشتاين أن هذا الفخار لم يقتصر، كما كان يعتقد، على مدن التحالف، بل كشف عنه في مواقع قريبة أخرى، كتل أبو هريرة الذي لا يبعد إلا سبعة كيلومترات عن تل الشريعة، وفي تل الحسي الذي لا يبعد كثيراً عن عسقلان أو غزة. ولا توجد إمكانية لحل هذا التعارض، إلا في خفض تاريخ ظهور الفخار الأحادي اللون بعد رعمسيس السادس، أي حوالى ١١٣٥ وما بعد، وخفض تاريخ الفخار الثنائي اللون، وهو الفلسطيني الفعلي، وبالتالي خفض تواريخ الطبقات المرتبطة بهذا الفخار ومجمل البقايا المعمارية فيها كالقصور والبوابات في تل المتسلم (مجدو)، والبوابات في تل القدح (حاصور) وتل الدوير (لاخيش)، وهي ما كان يعتقد بشكل راسخ أنها تعود إلى فترة حكم الملك سليمان في القرن العاشر.

إن قيام الآثاريين بنسبة مباني طبقة محددة من طبقات تل المتسلم إلى القرن العاشر، وبالتالي إلى فترة سليمان هو أمر قديم قدم الآثار الفلسطينية نفسها. فتل المتسلم، الذي لم يكن مأهولاً، حدده الآثاريون على أنه «مجدو» منذ بدايات البحث الآثاري في فلسطين، وفقد اسمه الأصلي بعد عام ١٩٤٨ ليصبح مجدو. ففي العشرينات عندما كانت الآثار الفلسطينية تتخبط في البحث عن أسس صحيحة للبحث الآثاري، قام المسؤولون عن بعثة التنقيب من جامعة شيكاغو بربط آثار الطبقة الرابعة من الموقع بمشاريع البناء الضخمة المنسوبة إلى سليمان في العهد القديم، فهناك أسلوب البناء الذي قورن بسفر الملوك الأول ٧:١٢: «وللدار الكبيرة في مستديرها ثلاثة صفوف منحوتة وصف من جوائز الأرز، كذلك دار بيت الرب الداخلية ورواق البيت»؛ وهناك مجموعة الأبنية بأعمدة في تل المتسلم أيضاً، وهي ما

ربط بسفر الملوك الأول ١٥:٩: «وهذا هو سبب التسخير الذي جعله الملك سليمان لبناء بيت الرب وبيته والقلعة وسور القدس وحاصور ومجدو وجازر»، وفي السفر نفسه ١٩:٩: «وجميع مدن المخازن التي كانت لسليمان ومدن المركبات ومدن الفرسان». وفيما بعد دعم هذا الرأي يادين، الجنرال السابق في الجيش الإسرائيلي، وأحد الشخصيات الرئيسية في الآثار الإسرائيلية المبرمجة لتربط نفسها وبشكل مصطنع بتاريخ شعوب انقرضت، عندما قارن بوابات تل المتسلم (مجدو) وتل القدح (حاصور) وتل الجزري (جازر)، بالرغم من أنه هو نفسه يؤرخ أو يعيد تأريخ «مجموعة الأبنية بأعمدة» إلى القرن التاسع مخالفاً رأي البعثة الأمريكية. وإن كانت البوابات في المدن المذكورة، وبالتالي أسوارها، متشابهة، فكيف لا يمكن ربطها بسفر الملوك الأول ١٥:٩ المستشهد به أعلاه، وهي المدن إياها المذكورة في تلك العبارة، وربط التخريب الملاحظ في طبقة ١١ لتل عراد بحملة الفرعون المصري شوشينق (شيشق في العهد القديم). ويبدو الجانب الأيديولوجي الذي ينطوي عليه ربط العهد القديم بالآثار المكتشفة للمدن الفلسطينية كتل المتسلم وتل القدح وتل الجزري في العبارة التالية ليادين: «إن الجهود الآثارية الرامية إلى الكشف عن بقايا مباني سليمان، وهو أعظم بناء من بين ملوك اسرائيل، هي جزء من النشاط المثير للتنقيبات في الأرض المقدسة على مدى السبعين سنة الماضية».

وإذا صرفنا النظر عن نقطة الإنطلاق لفينكيلشتاين، وهي الأساسية كما ذكرنا ووصفناها أعلاه، أي تفضيل خفض التسلسل الزمني النسبي لبداية العصر الحديدي الأول، فإن الأدلة التي يبرزها هذا البحث حاسمة في ما له علاقة بتل المتسلم، الذي يقوم فينكيلشتاين نفسه بإدارة تنقيبات ميدانية فيه منذ أعوام. وإن قبلت بمجملها فهي قد تكون كافية لزعزعة فرضية المباني العظيمة للملكة المتحدة لداود وسليمان. فأولاً، إن بوابة تل المتسلم (مجدو) هي بعد الطبقة الخامسة أ ـ الرابعة ب. أضف إلى ذلك أن هذا النمط من البوابات قد عثر عليه في مواقع تقع تحت نفوذ الفلسطينيين القدماء، كأسدود وتل الدوير وخربة الغرة. وبالطبع وكما هو متوقع فإن نص العهد القديم غير مؤكد زمنياً بالإضافة الى عدم الوضوح الذي يعتري المقاطع السليمانية (ما هو المقصود: «بناء مدن كبيرة، تأسيس مدن، أو أي شيء آخر»؟ [فينكيلشتاين]).

ويمكن اعتبار زرعين أحد المواقع الرئيسية التي اعتمد عليها فينكيلشتاين في وضع تسلسله الزمني المنخفض، ولا يوجد أدنى شك بأن زرعين الفلسطينية التي حافظت على اسمها القديم، هي يزرعيل التي قام أحاب ببناء قصر فيها لم يدم كثيراً وخرب بعد فترة نتيجة «لإنقلاب» ياهو. وفي التنقيبات التي قامت بها المدرسة البريطانية للآثار في القدس بالاشتراك مع جامعة تل أبيب، عثر فعلاً على مبنى خرب بعد بنائه بفترة قصيرة. أي أن هذا المبنى يعود إلى منتصف القرن التاسع ويشبه الفخار المقترن بهذا الصرح ذلك الذي من الطبقة الخامسة أ ـ الرابعة ب في تل المتسلم (مجدو)، أي الطبقة المختلف عليها والمؤرخة بالقرن العاشر. ولا بد من الإشارة في هذا المجال إلى أن معارضي فينكيلشتاين قد ذكروه بأنه يعتمد هنا على العهد القديم بالرغم من التهميش الذي يصبغ فرضيته لهذا الكتاب.

أما بالنسبة للجنوب فقد أوضح فينكيلشتاين أن التسلسل الزمني المنخفض يسد الفجوة في القرن

التاسع في ما إذا وضعت الطبقة الحادية عشرة لتل عراد في القرن العاشر (حملة شوشينق). وبالفعل بالإمكان خفض التسلسل الزمني لتل عراد إلى القرن التاسع بالإعتماد على مقارنات فخار مع تل الدوير، وإذا ما طبقت هذه النتائج على الجنوب بشكل عام فستزول فجوة مشابهة كانت موجودة في عدد من المواقع الأساسية حسب التصور السابق، كخربة المقنع وتل بطاشي واسدود وتل الخويلفة وتل خيضر وتل بيت مرسم وتل أبو هريرة وتل الشريعة.

إن إحدى النتائج المهمة للتسلسل الزمني المنخفض للعصر الحديدي الأول من ناحية آثارية، وبالإعتماد على المسوحات، التي قام ببعضها فينكيلشتاين نفسه، هي أنه لم يحصل أي تغير جذري في أنماط الاستقرار في الهضاب الكنعانية إبان القرن العاشر، الذي هو حضارياً استمرار للقرنين الحادي عشر والثاني عشر، اضافة إلى فقدان الفخار المعروف باسم «فخار الحافة على شكل طوق» صفته التشخيصية، وكان هذا الفخار هو ما يميز العصر الحديدي الأول عن الثاني، وكان يربط عادة باستقرار القبائل الإسرائيلية.

وتاريخياً فإن الكيان الذي برز كدولة متطورة ليس هو «المملكة المتحدة» التي أسسها داود في القرن العاشر، وإنما الدولة الشمالية لإسرائيل القديمة التي تعود إلى فترة حكم عمري، وإن الدافع نحو القيام بتحصينات ونشاطات واسعة في المدن هو التهديد المتزايد للآراميين والأشوريين من الشرق. وبهذا تتداعى الصفة المفاجئة أو الفريدة التي كانت تقرن بجذور اسرائيل القديمة. هذه الجماعات التي كانت تتجول في الهضاب الفلسطينية في القرون الأخيرة من الألف الثاني تمثل إحدى الظواهر لحضارة واحدة، قد نسميها الكنعانية. فهي مجموعة من القبائل قد تشكل اتحاداً أو تحالفاً برئاسة أحد شيوخها، داود أو سليمان، ضمن محيط دويلات المدن الكنعانية. ولا يتعارض هذا مع إمكانية ظهور كيان سياسي متطور من وضع بدائي كهذا. وكما يقول فينكيلشتاين «فإنه يمكن لمملكة داود وسليمان أن تكون إمارة أو دولة ناشئة في مرحلة التوسع ولكن بلا صروح معمارية ونظام اداري متقدم، والأمثلة على هذا الشكل من الكيانات السياسية عديدة، كالفترة المبكرة من تاريخ العثمانيين. وبالإمكان ايجاد حالات مماثلة من فلسطين نفسها كالكيان السياسي الواسع لتل بلاطة (شخيم) أثناء فترة العمارنة».

إن هذا يعني عدم وجود دولة أو كيان سياسي متطور لإسرائيل القديمة كما هو مطروح في العهد القديم. تلتقي نتائج هذه الفرضية مع دراسات نقدية قديمة ـ حديثة للعهد القديم، ترى أن في وصف نشوء إسرائيل القديمة مبالغة تعكس ردود فعل لجماعات دينية نشأت بعد السبي البابلي في القرن السادس[٤]. ويبقى الإطار العام لما تمثله منهجية فينكيلشتاين هو تطوير فرضيات في الآثار تعتمد على المعطيات الآثارية بدون خلطها مع المصادر الأدبية ذات الصبغة المتحيزة، والعهد القديم أحدها.

وفي النهاية فإن وضع اسرائيل القديمة ضمن إطارها الصحيح الذي تنتمي إليه فعلاً هو خطوة في الإتجاه الصحيح. وهذا ما نحتاجه نحن الفلسطينيين أكثر من الآخرين حتى نتمكن من كتابة تاريخنا عن تلك الحقبة بشكل منطقي ومترابط.

خالد الناشف

الهوامش:

(١) تذكر المواقع في هذه المقالات باستمرار بأسمائها العربية، وباسمها القديم، إن عُرف، بين قوسين.

(٢) نستعمل هنا مصطلح «العهد القديم» بدلاً من «التوراة» التي يُقصد بها الكتب الخمسة الأولى فقط من ذلك العمل.

(3)minimalists and nihilists

(٤) أنظر غلين باومن، الكرمل ٦٠ (صيف ١٩٩٩)، ص ص ٦–٢١. هذا المقال منشور بنسخته الأصلية وبشكل كامل في الكتاب الذي يجمع محاضر مؤتمر «آفاق المشهد في فلسطين»، الذي عقد في جامعة بيرزيت عام ١٩٩٨ (Bowman 1999).

المراجع:

Glenn Bowman, The Exilic Imagination: The Construction of the Landscape of Palestine from its Outside. Pp. 53-77 in Ibrahim Abu-Lughod, Roger Heacock and Khaled Nashef, The Landscape of Palestine: Equivocal Poetry. Birzeit: Birzeit University, 1999.

Amy Dockser Marcus, As Debate Simmers, Walls fall at Jericho, and Ahab's a Hero. In the 'Finkelstein Correction.' An Archaeologist recasts the Biblical Pecking Order. Wall Street Journal, December 31, 1997.

Israel Finkelstein, The Archaeology of the United Monarchy: An Alternative View. Levant 28, 1996, pp. 177-187.

Amihai Mazar, Iron Age Chronology: A Reply to I. Finkelstein. Levant 29, 1997, pp. 157-167.

Hershel Shanks, San Francisco Tremors. Not Earthquakes, Just Academic Rumbles. Biblical Archaeology Review 24/2 (March/April), pp. 54-56.60.

Hershel Shanks, Where is the Tenth Century? Biblical Archaeology Review 24/2 (March/April), pp. 56-60.